

الرصافي شاعر الواقع والضمير؛ دراسة فنية في شعره بين الإنسان والمجتمع

Title: Al-Rusafi: Poet of Conscience and Reality – An Artistic Study of His Poetry Between the Human and the Social Dimensions

عباده حمال عبد الفتاح أبو محسن Abada Hammal Abdel Fattah Abu Mohsen

Obadah568@gmail.com

أحمد حسن عبد الله حامد Ahmed Hassan Abdullah Hamed

ahmad.hamed@najah.edu

جمال أحمد زيد الكيلاني * Jamal Ahmed Zaid Al-Kilani

shar@najah.edu

الفقه الإسلامي / جامعة النجاح الوطنية / فلسطين

DOI:10.46315/1714-015-002-029

الإرسال: 2026/02/22 القبول: 2026/06/00 النشر: 2026/06/10

**

ملخص: يتناول البحث بالدراسة والتحليل البنية الفنية والفكرية في شعر الشاعر العراقي معروف الرصافي؛ باعتباره واحدًا من أبرز شعراء النهضة الحديثة، ومن القلائد الذين عبروا بصديق وإخلاص عن آلام الأمة وتطلعاتها نحو التحرر والعدالة والكرامة.

كما يركز على القيمة الفنية في شعره؛ من خلال استعراض أبرز الخصائص الأسلوبية والموضوعية التي تميز بها، مثل: صدق العاطفة، والبساطة في اللفظ، والعمق في المعنى، وتعدد الأغراض الشعرية، خاصة في جوانب من شعره الاجتماعي والوطني والإنساني، كما يبرز الرصافي شاعرًا ذا نزعة إصلاحية صادقة، جامعًا بين مهمة الشاعر والمفكر والمصلح في آن، ومُكرِّسًا شعره في خدمة قضايا الفقراء والمهمشين من أبناء الأمة، ونحن على أن نعرف الرصافي صاحب رسالة، أحرص منّا على أن نعرفه في صُورٍ جميلة من القول.

وفيه بيان مبدأ الوحدة العضوية، والنزعة الواقعية، والاعتماد على الشعر القصصي في نقل معاناة المجتمع والناس، وينتهي إلى أن الرصافي شاعر متفرد بقيمته الفنية والإنسانية، حيث ارتقى بالشعر العربي من الترف اللفظي إلى التعبير الحقيقي عن الحياة والإنسان، فكان بحق صوتًا صادقًا من أصوات الضمير الجمعي العربي أوائل القرن المنصرم.

كلمات مفتاحية: رصافي؛ شعر اجتماعي؛ شعر قصصي؛ قيمة فنية؛ نزعة واقعية.

Abstract :

This study investigates the artistic and intellectual structure of the poetry of the Iraqi poet Ma'ru'f al-Rusafi , who is regarded as one of the most prominent poets of the Arab Renaissance. The research highlights the aesthetic and expressive value of his poetry , emphasizing his sincere emotional expression , simplicity of language , and thematic richness. Al-Rusafi's poetry is characterized by its deep humanistic and reformist dimensions , addressing issues of poverty , colonialism , women's rights , and educational reform. Through a stylistic and analytical approach , the study explores the poet's innovative use of form , rhythm , and meaning , as well as his unique ability to embody collective Arab consciousness. -1Research objectives and originality:

Keywords : Ma'ru'f al-Rusafi; Social Poetry; Narrative Poetry; Aesthetic Value; Realist Tendency.

**

1- مقدمة:

الحمدُ لله وَكَفَى وصلاةً وسلاماً على نبيه الَّذِي اصْطَفَى أَمَّا بَعْدُ؛

فَيَعُدُّ الشعر العربي بِحَقِّ مرآةً صادقةً تعكس تحولات الأمة ومختلف ظروفها، يُعَيِّرُ عن أحوالها الفكرية والاجتماعية والسياسية في مختلف العصور والأزمنة، وقد عرفت الساحة الأدبية العربية في العصر الحديث عددًا لا بأس فيه من الشعراء الذين تجاوزوا حدود الغنائية التقليدية إلى الانخراط الكامل في قضايا الأمة والمجتمع، فكان الرصافي واحدًا من أبرز هؤلاء، حيث شكّل شعره صوتًا صايرًا لوجدان الأمة في زمن الاستعمار والتخلف الاجتماعي والسياسي.

والرصافي لم يكن ذلكم الشاعر الذي يسبك القوافي؛ أملاً في ترفٍ لفظي أو تكسب مادي، بل كان أديبًا مُصلِحًا، سَخَّرَ فَنَّهُ في خدمة قضايا الإنسان والمجتمع، فَحَمَلَ هَمَّ الفقراء والمُعْدِمِينَ، وَغَبَرَ عن طموحات الشعب نحو الحرية والعلم، وانتقد الاحتلال والفساد والجهل والتخلف، وظلَّ على ذلك غَيْرَ مُبَدِّلٍ ولا مُغَيِّرٍ طوال مسيرته، وَفِيَّ في الوقت نفسه لقناعاته التي تبناها، وهي أَنَّ الشعر رسالةٌ لا بُدَّ أَنْ تُفْضِيَ إلى التغيير والإصلاح.

إشكاليَّةُ البَحْثِ؛

ينطلق هذا البحث من التساؤل المحوري التالي :

ما ملامح القيمة الفنية في شعر معروف الرصافي، وكيف وُظِّفَت هذه القيمة في خدمة الأبعاد الإنسانية والاجتماعية والسياسية؟

متفرعاً إلى؛

أ. كيف وُظِّفَ الشاعرُ البناء الفني في خدمة الغايات الإصلاحية؟

ب. ما مدى تأثير البيئة والسياسي والاجتماعي في تكوين تجربته الشعرية؟

ت. ما الخصائص الأسلوبية التي تميز بها شعره مُقَارَنَةً بشعراء عصره؟

أهداف البحث؛

يهدف هذا البحث إلى:

1 - تحليل الخصائص الفنية في شعر الشاعر موضوع الدراسة، من حيث: اللغة، الوزن، والتصوير، والوحدة الموضوعية.

2 - إبراز البعد الإنساني والاجتماعي في شعره، وعلاقته بتجربته الواقعية .

3 - الكشف عن موقفه الفكري والسياسي من قضايا عصره، ودوره شعرياً في التعبير عنها.

4 - بيان مظاهر التجديد في شعره، والتجاوز على القوالب التقليدية .

الدراسات السابقة؛

تناولت العديد من الدراسات شعر معروف الرصافي بالدراسة والتحليل؛ مركزةً على جوانبٍ فكريةٍ واجتماعيةٍ فقط، غير أنَّ بعضها اقترب من التحليل الفني ولكن على نحو موجز، وفيما يلي عرضٌ لأبرز تلك الدراسات التي لها صلةٌ وثيقةٌ بموضوع هذا البحث :

1. شرارة، عبد اللطيف، "معروف الرصافي شاعر الحرية"، بيروت: دار العلم للملايين. 1956م

ركزت الدراسة على المضامين السياسية والاجتماعية في شعر الرصافي، وموقفه من الاستعمار والجهل، وغلب على الدراسة الطابع التحليلي للأفكار دون تعمق في البنية الفنية أو الجمالية للنصوص .

2. الزُّبَيْدِي. أمل كاظم، "الصورة الفنية في شعر معروف الرصافي"، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 1989. تناولت الدراسة الصُّورَ الشعريّة: التشبيه، والاستعارة، والرمزية، وأبرزت واقعية الصور وتوظيفها للإقناع، لكن لم تتوسع في البنية الفنية الشاملة؛ كاللغة، والإيقاع، والوحدة الموضوعية .

3. البصري، عبد الجبار داوود: "النزعة العقلية في شعر معروف الرصافي"، مجلة الآداب والعلوم – جامعة بغداد، العدد: 42، 1996م.

ركز البحث على الطابع العقلي والمنطقي، الذي يطغى على شعر الرصافي، وناقش أثر ثقافته اللغوية والدينية في تشكيل رؤيته الفكرية، غير أنَّ البحث لم يتناول بالدراسة القيمة الفنية بوصفها مفهوماً جمالياً متكاملًا.

4. الراوي، سعاد فاضل: " التقنيات البلاغية في شعر معروف الرصافي"، مجلة دراسات أدبية – جامعة الكوفة، المجلد: 12، العدد: 2، 2017.

ركزت الدراسة على أدوات البلاغة في شعر الرصافي؛ ك: الطباق، والمقابلة، والجناس، والسخرية، وأبرزت توظيف الرصافي لهذه الأدوات؛ خِدْمَةً للمعاني الإصلاحية، ولكنها لم تشمل مكونات أخرى؛ كالإيقاع، أو التكوين البنائي للنصوص .

وبالنتيجة؛ اتضح أنَّ أغلب الدراسات السابقة ركزت إمّا على المضمون الإصلاحي والفكري، أو على عناصر جزئية من البنية الفنية، ولم تجمع إلى جانب ذلك بين التحليل الفني بمفهومه الشامل (الصورة، والإيقاع، واللغة، والتكوين) وبين رسالة الشاعر الفكرية، ومن هنا تنبع أهمية هذا البحث في سدِّ هذه الثغرة من خلال رؤية نقدية فنية.

2- المنهج وطرق معالجة الموضوع

اعتمدَ البَحْثُ على المنهج التحليلي النقدي في تناول النصوص الشعرية، ودراستها من حيث البنية الفنية والدلالية، مع الاستعانة بالمنهج التداولي، ونحو النص في تفسير التفاعلات النصية، والأساليب التعبيرية، وطُرق التأثير والإقناع، إلى جانب إشاراتٍ إلى السياق التاريخي والاجتماعي المُصاحِب لتجربة الشاعر.

المطلب الأول: الملامح الفنية العامة في شعره

الرصافيُّ شاعرٌ من الرُّوَادِ الذين فهموا بحقِّ أبعاد الأدب ورسالة الأديب والشاعر، غير أنَّ الخُلُقَ الذي انمازَ به عن غيره من معاصريه؛ هو تعشقه الحرةً فكان لهذا الخلق أن اختط له سبيل المجد، وفتح أمامه أبواب النبوغ الشعري، إذ يقول - :

أحريتي، إِنِّي اتخذتك قبلَةً أُوجُهُ وجهي كل يوم لها عشرا (الرصافي، م، 1953م، 46) [الكامل]

وهو إلى جانب ذلك شاعرٌ مرهف الإحساس والشعور، حادُّ العاطفة، وفيّ لوطنه الأكبر العروبة التي ينتهي لها، ويحيا بكنفها، وهب نفسه وموهبته وشاعريته للبائسين والمهمشين، فهم ملهمو قصائده الغُرر، وفي هذا المعنى يقول - :

من ليس يبيكيه من أبناء جلدته بكاؤهم؛ فهو من جنس التماسيح! (طبانة، أ، 1947م، 48)

[الرَّمَل]

وقد جاء في ترجمة الشاعر أنه: "خَيْرٌ مِنْ عَبْرٍ عَنْ وَجْدَانِ الْأُمَّةِ، ودافع عن قضاياها، ونزعها الوطنية، ونادى بمحاربة الفقر والجهل والتخلف والتأخر، ونافح عن حقوق الإنسان العربي في حياة حُرَّةٍ وكرامة" (صفوة، ن، 1988م، 9).

والرصافي مُعِي الشَّعْرَ الحزين، حيثُ أطلقَ عليه صاحبُ مُؤَلَّفٍ: "الأدب العصري في العراق العصري" بعد أنُ وسمه بالعبقريّة "الشاعر العبقري"، وعَدَّهُ أَلَمَ جَوْهَرَةٍ في تاج الأدب المعاصر " (بطي، ر، 2018م، 65-66)، إِنَّهُ بِحَقِّ مُعِي الشعر الحزين؛ بقريضه الممتاز، وهذه قاعدة أساسية لا ممدوحة عنها في شعره، إذ يقول:

أَتَعَجَّبُ مِنْ حُزْنِي وَنَعْلَمُ أَنَّنِي قَرِيعُ تَبَارِيحٍ تُشِيبُ التَّوَاصِيَا! (الرصافي، م، 1953م، 122-123) [الطويل]
ومنه قوله:

وَلَكِنَّ نَفْسِي، وَهِيَ نَفْسُ حَزِينَةٍ تَمِيلُ إِلَى الْمُسْحِي لَهَا مِنْ حَزِينِهِ (الرصافي، م، 1953م، 198) [الطويل]
وهو شاعر القومية العربية؛ المُنافِح عن قضايا أُمته، وتطلعاتها نحو الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، وقد تمص في سبيل ذلك دور الأديب والمصلح الاجتماعي الذي فكان تُرْجُمَانًا صادقًا لقضايا الأمة وهمومها، وقد عمد في سبيل ذلك إلى الربط بين حاضر الأمة المتردي وماضيها الذي أَقْلَ نَجْمُهُ في صورةٍ تعكس مفارقة غريبة بين الحالتين إذ يقول:

أَلَسْتُمْ مِنَ الْقَوْمِ الْأَكْبَى كَانَ عِلْمُهُمْ بِهِ كُلُّ جَهْلٍ بِالْأَنَامِ قَتِيل؟! (الرصافي، م، 1953م، 396-399)

[الطويل]

فَكَانَ أَنْ رَسَمَ لَنَا لُوحَاتٍ فِي غَايَةِ الْإِنْسَانِيَةِ بَسِيطَةً الشَّكْلِ وَالتَّرَكِيبِ، ولكنها في الوقت نفسه عميقة الأثر والمضمون؛ من خلال عرضٍ مأساوي، ووصفٍ دقيقٍ لشرائحٍ من المجتمع عنوانها المعاناة وسمتها الألم؛ كما نجد في قصائد: "الأرملة المرضعة"، و"اليتيم في العيد"، و"المطلقة"، و"السجن في بغداد" وغيرها.
وبالجملة كَسَا الرصافي شعره حُلَّةَ الطابع الإنساني؛ من خلال دفاعه عن جملةٍ من القضايا الإنسانية والمجتمعية؛ حيثُ يأتي في مقدمتها الفقر والبؤس، وقد كانت للتحويلات والتطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة العربية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالغ الأثر في شعره؛ وقد أفضت هذا الأحداث والتقلبات السياسية إلى أن يخلع عن شعره عباءة التقليد وريق المحاكاة، ليلبسه ثوبًا قَشِيبيًا جديدًا أكثر تعبيرًا والتصاقًا بقضايا الأمة وهمومها؛ فكان أن انتشر شعره بين الأوساط الشعبية وتناقلته الجماهير.

"فقد كان الرصافي صادق الشعور، مخلصا فيما ينظم؛ وهذا من شأنه أن يجعل القارئ شريك الشاعر في مَنَحَاهُ؛ فيُحَسَّ بِإحساسه، ويشعر بشعوره، ويبدله التأثير والتأثير المتبادل" (علي، م، الرصافي، 1947م، 23، 1)

أُحِبُّ صَرَاحَتِي قَوْلًا وَفِعْلًا وَأَكْرَهُ أَنْ أَمِيلَ إِلَى الرِّيَاءِ (الرصافي، م، 1953م، 191) [الوافر]

فهو أديبٌ وشاعرٌ كبيرٌ يشعر بشعور أمته ووطنه؛ يفرح لفرحهما، ويتألم لألمهما، ومفكرٌ حرٌ لا تأخذه في قول الحق لومةٌ لائمٌ؛ لذلك استحق أن يُطلق عليه الشاعر والكاتب العراقي محمد صادق بحر العلوم - يوم تأبينه - لقب " شاعر الجيل "، إذ يقول:-

أشاعر هذا الجيل، أيتمت أُمّةٌ بغير افتقاد الحُرِّ لم تتَيَّم (الرصافي، م، 1953، م، 125) [الكامل]

المطلب الثاني: البعد الإنساني والاجتماعي في شعره؛

بدأ الرصافي بوظفُ الاتجاه الإصلاحِي والإنساني في شعره، وذلك ضمنَ تكتيفٍ دلاليٍّ واسعٍ في غير ما قصيدة، حيث يتساءلُ الشاعر في واحدة من قصائده - وبندٍ يملؤها النقدُ - عن فائدة الشعر الذي يقوله إن لم يكن به نفعٌ لأُمته، يسعى إلى تحقيقِ مصالحها، في صورةٍ تعكس دور الشاعر في مجتمعه، والمسؤولية الأخلاقية الملقاة على عاتقه تجاه قضايا الناس وهمومهم، إذ يقول:-

وما يُنفعُ الشَّعْرُ الَّذِي أَنَا قَائِلٌ إِذَا لَمْ أَكُنْ لِلْقَوْمِ بِالنَّفْعِ سَاعِيًا؟!

وَلَسْتُ عَلَى شِعْرِي أَرْوْمُ مَثُوبَةً وَلَكِنَّ نَصْحَ الْقَوْمِ جُلُّ مَرَامِيَا (الرصافي، م، 1953، م، 125)

[الطويل]

إنَّ المسؤولية الأخلاقية تتضحُ بجلاءٍ في صورةٍ وصيته الأخيرة التي نقلها عنه رفيق دربه مصطفى علي، فقد بيّن فيها هدفه من كل ما يكتبُ شعراً كان أو نثرًا؛ وهو خدمة قضايا أمته ووطنه: " كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي فيه منفعتي الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذين أنا منهم " (علي، م، 1947، م، 1، 43).

ويظهر مما سبق أنَّ الرصافي شاعرٌ إنسانيٌّ الطابع لم يُوفِّق في حياته إلى شيءٍ من الرفاهية، أو السعادة، ولا يملك من حُطام الدنيا سوى السرير الذي يرقُدُ عليه، وثيابه التي يرتديها، بل إنَّ أقصى مُرادِه خدمة قومه ووطنه، وقضايا أمته .

ولعل أول صفة اتصف بها الرصافي في مؤلفاته شعراً كانت أو نثرًا هي الإخلاص: "لقد كان الرصافي مخلصاً فيما يكتب، وكانت هذه الصفة الأساس الذي قامت عليه جل مؤلفاته الشعرية والنثرية (الرصافي، م، 1953، م، 82)، إذ يقول:-

إِذَا أَنَا قَصَدْتُ الْقَصِيدَ فَلَيْسَ لِي بِهِ غَيْرُ تَبَيَّنِ الْحَقِيقَةِ مَقْصِدُ (الرصافي، 1953 م) [الطويل]

ومِمَّا يميّزُ به الرصافي في شعره؛ جزالة اللفظ، وعلو الأسلوب، فقد كان يَحْيَ هَجَاءً مُرًّا، وواصفًا مُجِيدًا، ملأ الأسماع بشعره ونظمه، نشأ وعاش ومات فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا إلا ما يسُدُّ به رمقه، ويقيم أودّه، وقد كان لتلكم النشأة والحياة التي عاش بعض أثرٍ في منافحته الدائمة والمستمرة عن الفقراء والمعوزين " (الجبوي، ك، 2002، م، 6، 253-254)، وهذا مما يخدم قضايا السبك والحبك النحوي التي سيعالجها الباحث في فصول تلحق هذا المهاد المؤسس .

أما عن مدرسة الشعر التي ينتهي إليها فيمكن القول إنَّه ينتهي إلى مدرسة البعث والإحياء؛ ذلك أنَّه لم يترك غرضًا من أغراض الشعر؛ قديمه وحديثه، إلا ووجدته يطرق بابه، فالمعروف عنه أنه شاعر ذو

أغراض شعرية متعددة؛ كتب في الثورة والتمرد، والوطن، والأدب، والسياسة، والاجتماع، على أن هذا لم يمنعه من الإفادة من العصر الذي عاش فيه .

أما عن شعره الذي يُوصَفُ بالاجتماعي؛ فقد امتد لِيَشْمَلَ مختلفَ نواحي المجتمع، فلا انفصام بين الشاعر ومجتمعه، وقد نَبَّهَ بشعره النفوسَ الخاملة، وحاول ما استطاع من ملكته الشعرية، وعاطفته الصادقة استنهاض عزائم الأمة، وفي ذلك يقول - :

أَلَا نَهْضَةُ عِلْمِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ فَتَنْعُشُ أَرْوَاحَ بِهَا وَعُقُولُ! (الرصافي، م، 1953م، 396-399) [الطويل]

وهذا مظهر من مظاهر النهضة الحديثة؛ وهو إحساس الفرد أنه لا يعيش لنفسه بل هو عضو فعّال في مجتمعه؛ فعليه أن يشعر بما يشعر به، وقد كان الرصافي بذلك خيرَ من صَوَّرَ آلام الفقراء وما يجدونَ من شَخْطِ العيش، وَمَرَارَةِ الجِردان " (مسعود، س، د.ت، 10) .

وتأسيساً على ما سبق؛ حوى شعر الرصافي من المصاحرة بالحقائق الاجتماعية المُرّة ما لم نعهده في الشعر العربي، فضلاً على أن شعره من النوع الاجتماعي الحزين، وهو بعدُ شاعرٌ مطبوعٌ على الحنان، والعاطفة الصادقة التي من خلالها جَسَدَ هموم الأمة وآلامها.

المطلب الثالث: القضايا السياسية والفكرية التي عالجها الرصافي في شعره:

ومما يميز شعر الرصافي ظاهرة الثورة والتمرد على العادات والتقاليد المحجفة الظالمة، وعلى الاستبداد والظلم والفقر والحرمان، وعلى غياب حرية الرأي والفكر، وعلى هضم حقوق المرأة واستلاب حريتها، وفيها يقول:

لَمْ أَرِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ مَظْلَمَةٍ أَحَقُّ بِالرَّحْمَةِ مِنَ الْمُسْلِمَةِ؛

مَنْقُوصَةٍ حَتَّى بِمِثْرَائِهَا مَحْجُوبَةٍ حَتَّى عَنِ الْمَكْرُمَةِ (الرصافي، م، 1953م، 349-350) [السريع]

ومنه :

مَا أَهْوَنَ الْأَثْنَى عَلَى ذُكْرَانِنَا فَلَقَدْ شَجَانِي ذُلُّهَا وَخُضُوعُهَا (الرصافي، م، 1953م، 356) [الكامل]

أما الطريقة التي انتهجها في استثارة الهمم الخاملة والعزائم الخائرة فقد تَمَثَّلَ بأساليب من اللغة طَوَّعَهَا في خدمة هذا الغرض المنشود؛ يأتي على رأسها الاستفهام، والنفي، والنهي، والتعجب؛ فهو يطرح أسئلة ولا يقدم إجاباتٍ فهو يرمي إلى إثارة الرأي والعقل، ونشر بذور التمرد .

في حين شكل النفي لدى الشاعر ظاهرة أسلوبية؛ وذلك من خلال رفضه وتمرده على الواقع المتردي، فالشاعر ونتيجة لذلك لا يبالى باله بالمنمقات والزخارف اللفظية في هذا المقام الرسالي، بل يجري شعره في سلاسة وسهولة، فالشعر قبل كل شيء رسالة اجتماعية في غاية الأهمية؛ يعبر من خلالها الشاعر عن هموم الأمة وقضايا المجتمع، وهذا الذي ذكر الباحث سيخدم بلا ريب جملةً من قضايا التداولية التي سيتناولها بالدراسة في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

ونتيجة لذلك وُسمَ شعر الرصافي بأنه قصصي النزعة؛ كونه جاء وصفاً دقيقاً، وتعبيراً في غاية الرقة لمعاناة طبقاتٍ واسعة من المجتمع الذي كانت ترزح تحت أثاث البؤس، وأهات الفقر والحرمان، وذلك من خلال قصائد حملت مثل هذي العنوانين الدالة، والرصافي يرى أن استيحاء القصة في الشعر يصور الواقع

بشكل أوضح وأمثل من غيره؛ وبذلك كان من رواد ما يسمى بـ " الأدب الواقعي " (بطي، ر، 2018م، 180و).

لقد كان الرصافي من الشعراء المجيدين لفن القص الشعري، وهو في سائر أغراضه الشعرية ينحو منحأة القص الشعري في رسم مشاهد الفقر واليؤس واليتم المقرون بالنحل والهزال والدموع والهموم والغموم والأوصاب والفاقة ولنا في قصيدة " الأمثلة المرضعة دليل على ذلك :

أَتَوَاهُ رَنَّةً وَالرَّجُلَ حَافِيَةً وَالِدَمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الْخَدِّ عَيْنَاهَا (الرصافي، م، 1953م، 208) [البسيط]

هَذَا جَكَابَةُ خَالٍ جُنْتُ أَذْكُرُهَا وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى الْأَحْزَارِ مَغْرَاهَا

وانعكاساً لهذه الظروف والأحوال وتماهيا معها؛ جاءت لغة الشاعر مرأةً صادقةً، غثّةً بالمشاعر والعواطف والأحاسيس الملتبّة، على أنّ هذه المشاهد والصور التي تناولها الشاعر لم تكن نسج خيال، بل تصويراً دقيقاً لواقع حقيقي كانت شرائح واسعة من المجتمع تترج تحت وطأته .

وبالجملة؛ فالقضايا التي عالجها الرصافي في شعره قضايا فكرية واجتماعية وسياسية، تتميز بطابع إصلاحي واضح وصريح، ركز من خلالها على هموم الناس ومعاناتهم، وانتقد الظلم الاجتماعي، والفقر والحرمان، والجهل والتخلف .

ومن جملة القضايا السياسية التي تناولها الشاعر كذلك؛ (الاستعمار البريطاني، والفساد السياسي)، حيث اتخذ الشاعر موقف المناوئ المعارض لاحتلال العراق عام (1920)، وثار في وجه فساد الحكومات المحلية، والجهل السياسي، فكان أن نافح عن الوطني المسلوب، وعبر عن تطلعات الشعب نحو الحرية والكرامة والاستقلال .

حمل الرصافي على الاحتلال وأعوانه، واتخذ من مادّة السخرية اللاذعة سلاحاً سلّه على رقابهم؛ فقد اعتبر في قصيدة "حكومة الانتداب" علم البلاد، ودستورها، ومجلس الأمة فيها دُمَى يحركها الاحتلال حسب أهوائه ومصالحه، بل أطلق عليها وصف "المُرْتَفَة"، و"المُحَرَّفَة"، و"غير المعلومة"، إذ يقول :-

عَلَّمَ وَدُسْتُورُ وَمَجْلِسُ أُمَّةٍ كُلُّ عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ مُحَرَّفُ

أَسْمَاءُ لَيْسَ لَنَا سِوَى الْفَاطِيَا أَمَّا مَعَانِيهَا فَلَيْسَتْ تُعْرَفُ! (الرصافي، م، 1953م، 463) [الكامل]

وكان أن نصّب المستعمرون الإنجليز (المَلِكُ الدُّمِيّة) على البلاد، ووضعوا دستوراً ومجلساً وحكومة، يعرف القاصي والداني من أبناء الشعب والأمة كنهها وحقيقة أمرها، وثم أمر تجدر الإلماحة إليه موصولاً بكلامنا السابق ، وهو أنّ الشاعر أدخل في شعره السابق مفاهيم جديدة من قبيل: الدستور، ومجلس الأمة، والانتداب، وهذه الأخيرة لم تكن معهودةً مطروقةً في الشعر العربي، كما دعا شاعرنا إلى حرية الفكر بعيداً عن ربق الاستعمار وأغلاله؛ ذلكم الفكر المفضي إلى التقدم، واستنهاض الهمم، بل اعتبر في قصيدة: " الحرية في سياسة المستعمرين " - وبنوع من السخرية والتهكم - الخوض في غمار السياسة نوعاً من أنواع المحرمات التي لا يجوز للإنسان الحصيف الخوض فيها، وإلا ناله ما ناله من العقوبة والإثم.

يَا قَوْمَ، لَا تَتَكَلَّمُوا إِنَّ الْكَلَامَ مُحَرَّمٌ [مجزوء البسط]

نَامُوا وَلَا تَسْتَبْقِظُوا مَا قَارَ إِلَّا النُّومُ (الرصافي، م، 1953م، 150-151)

ومن السياسة ما كتبه عن مقاومة الفلوجة للاحتلال، وجرائمه فيها؛ من سفك للدماء وإهراقها، والبطش بأهلها، والتنكيل بهم؛ فقد بغى وظلم وفتك بالعزل من أبنائها، وأعمل فيهم قتلا وتشريدا، وفي ذلك يقول:

هُوَ خَطْبُ أَبْيَ الْعِرَاقَيْنِ وَالشَّامِ وَرَكْنُ الْبَيْتِ الْمَحْجُوجِ (الرصافي، م، 1953م، 468) [البسيط]

يعد التناص معياراً من معايير نحو النص الذي نحنُ بصدد، وهو بادٍ الوضوح في حديث الشاعر عن الخطوب الجليلة التي أبكت العراقيين، والكروب الشديدة التي تأبى الحمية إلا أن تثور عليها معلنةً الخلاص من المحتل وذلك في قول الشاعر: "هو كربُ تأبى الحمية"، وقوله أيضاً: "هو خطبُ أبكى العراقيين"، كما يعد التناص من جملة قضايا نحو النص التي سيعالجها بالباحث من خلال هذه الدراسة.

وهذا يحيلنا إلى أنَّ الشاعر بدا متأثراً بما قيل ببغداد وأهلها من مراثٍ أيام غزو المغول؛ فقد أكثر شعراء ذلكم العصر من رثاء مدن العراق وأهله، ولا سيما بغداد حاضرة الخلافة في حينها، وما حل بهم وبها من دمار وقتل ونهبٍ وتشريد، ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين رثوها شمس الدين الكوفي الواعظ الملقب بـ "شاعر مأساة بغداد" حيث أكثر الأخير من وصف ما حل بالعراق وأهله من فظائع ومصائب وخطوب جسام على يد المغول.

المطلب الرابع: مظاهر التجديد والثورة على التقليد في شعره؛

برزت مفاهيمٌ عدّة لدى الشاعر، وهي ذات بعد دلالي عميق ومؤطر لحالة جديدة فريدة من نوعها؛ جاءت كنتيجة لحالة عدم الاستقرار السياسي التي شهدتها العراق خاصة والوطن العربي عامة، إضافة إلى ما يشهده العالم بأسره من ظروفٍ وتطورات على مستوى حرية الفكر، والعدالة الاجتماعية، والنهضة العلمية، واليقظة الفكرية، والمناداة بحقوق المرأة.

غير أنَّ الرصافي لم تكن له قدم السبق في هذا المضمار، بل سبقه غيره من الأدباء والمفكرين والمصلحين والشعراء، فهو لم يأت بجديدٍ في موضوع المرأة؛ ومرجع آراءه في هذا الباب إلى أنَّ المرأة العربية جاهلة، ولا بُدَّ من تثقيفها؛ لأنَّها مربية النشء، وهي محتقرة ومظلومة، فلا بُدَّ من تحريرها؛ لأنها إنسانٌ كامل الإنسانية، وهي سجينه الدار، ولا بد من إطلاقها؛ لأنها كالرجل خُلِقَتْ لتعمل" (رجبي، ت، 1388هـ، 3).

وبالجملة؛ عمل الشاعر على توظيف ألفاظ اللغة وتراكيبها فضلاً عن أساليبها وأصواتها؛ خدمةً لغاية إنسانية نبيلة طالما صبت نفسه إلى تحقيقها؛ لضمان حالة من التفاعل الوجداني والإنساني مع هذه الفئات المهمشة في المجتمع، وهو ما يميل عليه شعوره وضميره، "وهو الذي لم يضرب بينه وبين الناس حجاباً من الرياء، وأَيْفَ أَنْ يَخِيطَ عَلَيْهِ ثِيَاباً مِنَ النفاق الاجتماعي" (علي، م، 1947م، 8)، وفي هذا يقول -:

أُحِبُّ صَرَاحَتِي قَوْلًا وَفِعْلًا وَأَكْرَهُ أَنْ أَمِيلَ إِلَى الرِّيَاءِ (الرصافي، م، 1953م، 191) [الوافر]

ومن مظاهر التجديد في شعره "دعوته إلى التعليم، واهتمامه بالنشء"، حيث دعا الرصافي إلى نشر التعليم، وحثَّ على بناء المعاهد والمدارس، فقد ساءه أن يرى الأمة تتخبط في دياجير الجهل، ورأى أنَّ أفضل وسيلة لاستنهاضها، هو نشر العلم الذي بهَرَ بمعجزاته العقول، ورفع شأن أمم الغرب فأعلى مكانتها في الحياة (علي، م، 1953-1954، 68)، وله من المؤلفات النثرية والقصائد الشعرية ما يؤسس ويدعو علانية إلى تحقيق هذه الغاية المنشودة، إذ يقول -:

ابْنُوا الْمَدَارِسَ، وَاسْتَقْصُوا بِهَا الْأَمْلا حَتَّى تُطَاوَلَ فِي بُنْيَانِهَا زُحَلَا (الرصافي، م، 1953م، 78) [البسيط]
ولا يكون ذلك - في نظر الشاعر - إلا بالعودة إلى الجذور، والتأسي بميراث أسلافنا الأول، إذ يقول في قصيدة له جاءت تحت عنوان: "جالينوس" أو "أبو بكر الرازي"

أَلَا لَفْتَةً مَنَّا إِلَى الرَّمَنِ الْخَالِي فَتَغْبِطَ مِنْ أَسْلَافِنَا كُلِّ مَفْضَالٍ! (الرصافي، م، 1953م، 361) [الطويل]
والغرض الأساسي لنظم الرصافي لطائفة من الأناشيد والقصائد المدرسية لطلبة وتلاميذ المدارس حده بنفسه قائلا: "إنها ترمي إلى غرضين أصيلين؛ أحدهما: تقوية ملكة التلاميذ في العربية، والغرض الثاني: جعل الطالب غزيرَ المادة في مفردات اللغة، إذ لا يتيسر حفظ كل تلك المفردات ولا ضبطها إلا بحفظ أشعار العرب وأقوالهم" (علي، م، 1947م، 190-113).

ويشير الرصافي إلى الدور الهام الذي تطلع به رسائل التعليم والتربية في حياة الأمة ومستقبلها، حيث يقول في هذا الصدد: "ومستقبل كل أمة منوطٌ بمجهودها وتخوت مدارسها، فمن أراد لأمته مستقبلا طيبا فما عليه ألا أن يسعى بقدرٍ ما يستطيع في إصلاح تلك المهود والتخوت" (علي، م، 1953-1954، 107 و109-110).

أما عن نظرة الرصافي إلى قضية الوزن في الشعر؛ فهو يرى أن الوزن ضرورة في الشعر، لا ممدوحة عنه، وأن الشعر وليدُ الغناء، وريبُ الطرب والإيقاع، ويرى كذلك أن الشعر بمعناه الخاص لا يصح أن يكون غير موزون، ولزم لذلك أن يكون مطابقا له في ألحانه وإيقاعاته وحركاته، "إن أهم ما يميز الشعر للوهلة الأولى؛ وأعني من حيث المظهر، موسيقاه، وطريقة كتابته؛ رعاية لهذا الموقف الإيقاعي، وقد أكدت تجربة الإنسان في كل العصور واللغات أن لا شعر بلا موسيقى" (عبدالله، م، 1981م، 11).

وهذه النظرة تتعاقد مع نظرة القدماء إلى الشعر، فالشعر عند ابن رشيق - مثلا - لا يقوم إلا على أربعة أركان ذكر منها الوزن مما يدل على أهمية الوزن في الشعر عندهم، إذ يقول: "الشعر يقوم بعد النيّة من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر؛ لأن من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر، لعدم القصْدِ والنيّة" (ابن رشيق، أ، 1981م، 1، 119).

وقد رفض الرصافي في الوقت نفسه أن يكون الشعر المنثور غير الموزون مساويا للشعر الموزون من جهة هذا التعريف الخاص الذي أطلقه على الشعر، اللهم إلا من جهة تأثيره في النفوس شعريا على حد تعبيره "، وفي هذا المعنى يقول:

وَقَدْ عَلِمَ الرَّأُوْنُ شِعْرِي بِأَهْمٍ إِذَا أَنْشَدُوهُ أَطْرَبُوا بِلُحُونِهِ (الرصافي، م، 1953م، 198) [الطويل]
وإذن؛ فالتجديد عند الرصافي تجديد في الأفكار والمعاني لا في الأوزان والقوافي، ومع ولع الرصافي بالتجديد ومسيرة لرأيه في ضرورة مجارة الشعر لروح العصر؛ إلا أنه يرى أن مجال التجديد وميدانه لا يتجاوز ناحية الأغراض والمعاني، وأما شكل الشعر فلا تغيير يطرأ عليه، وهو بعد من أنصار المحافظة على القديم، لا يحبذ الخروج على الأوزان المألوفة الماثورة، أو حتى التخلي عن نظام قافية القصيدة العربية (الخطاط، ق، 1971م، 338).

فللوزن أهمية كبيرة بالنسبة للصورة والمعنى الشعري على حد سواء؛ فيزيد الصورة جِدَّةً، ويُعَمِّقُ المشاعرَ، وتُلهِبُ الأخيَّةَ، بل يعطي الشاعر خلال عملية النظم نَشْوَةً؛ تجعلهُ يتدفق بالصور الحارَّةَ، والتعبير المبتكرة المهمة، وهو لا يعطي الشعر الإيقاع فحسب، بل يجعل كل نبرة فيه أعمق، وأكثر إثارةً وفِئْتَةً (عبدالله، م، 1981م، 1-11).

ونتيجةً لذلك ما تخلف شاعرنا عن بحرٍ من بحور الشعر ولا وزنٍ من أوزانه إلا وكان " جُذِبَلَهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذِيقَهَا الْمُرَجَّبُ " (الميداني، أ، د.ت، 1، 32)، إذ يقول:

رَكِبْتُ بُحُورَ الشَّعْرِ رَهْوًا وَمَاجِيًا وَأَفْحَمْتُ مِنْهَا كُلَّ هَوًى يَرَاغِبَا (الرصافي، م، 1953م، 126) [الطويل]
على أَنَّ من طالع أغراض شعراء العراق في القرن التاسع عشر؛ سيجدها أغراضًا وموضوعاتٍ سمها التقليد؛ كالمديح، والثناء، والغزل، أو أغراضًا وموضوعاتٍ دينيَّةٍ كما هو الحال في "المدائح النبويَّة" عند المتصوفة، و"مراثي آل البيت" عند شعراء الشيعة، ولا نجدُ في هذه الأغراضِ والموضوعاتِ تطورًا أو تجديدًا" (علوان، ع، 1975م، 30).

وقد احتلَّ المديح مساحة النصفِ من دواوينهم الشعرية إن لم يكن أكثر، وتضخم عندهم إلى حد الورم؛ من هنا أمكنَ فهم سبب مجيء بعض العبارات التي اعتبرت لازمةً عندهم من قبيل: "قال في مدح بعض الأكابر" وغيرها من العبارات المكررة التي امتلأت بها جنبات دواوينهم (علوان، ع، 1975م، 31)، ويهدف التكسب يُصَرِّحُ الشاعر جعفر الجليّ إذ يقول :

أَنَا يَا مُحَمَّدُ بِالمَدِيحِ مُوَاطِبٌ فَاسْلَمْ، وَأَنْتَ عَلَى الْجَمِيلِ مُوَاطِبٌ [الكامل]

والمديحُ له مثالب تتمثلُ في أَنَّ ثِقَةَ البَاحِثِ في هذا اللون من الشعر تأتي مهتزة؛ كون الشاعر المادح لا يعبر عن مشاعره تجارةً من يقاربونه في مشاكِلِ الحياة؛ ولأنَّ هذا اللون قائمٌ على منفعةٍ ذاتيَّةٍ بحتة، ومطامعٍ فرديةٍ خالصة (علوان، ع، 1975م، 32).

وعلى الضد من ذلك، ينأى الرصافي بنفسه عن المديح الزائف؛ ليجعلَ جُلَّ مراميه بيانَ الحقيقة، وخدمة مجتمعه وأُمته وفي هذا المعنى يقول :-

وَمِنْ أَجْلِ حُبِّي لِلْحَقِيقَةِ لَمْ أَكُنْ مَعَ الزَّمَنِ الْغَاوِي إِذَا مَا تَقَلَّبَا (الرصافي، م، 1953م، 553) [الطويل]
علاوةً على أَنَّ الشاعر المادح يدير ظهره لإرث أُمته، وتاريخها في لغتها، وموسيقاها، وصورها، وأساليبها؛ ليضحي بذلك كله؛ ليقدمه طُغْمَةً سَائِغَةً من أجل قَضِيَّةٍ يَوْمِيَّةٍ عَادِيَّةٍ أو غرضٍ مَادِيٍّ تَافِهٍ" (علوان، ع، 1975م، 32).

وقد ولَّدَ هذا التقليد الأعمى لموضوعات وأغراض الشعر القديم ظاهرةً أطلق عليها علي عباس ظاهرة (العقم الفني)، فقد أبرزت هذه الظاهرة جملةً من النتائج السلبية؛ منها: "انحطاط الخيال الشعري" أو "جمود الخيال الشعري" عند من امتهن هذا اللون من الشعر، فمن الصعب خلو الشعر من عنصر الخيال وإلا كان كلامًا مبتذلاً.

كما واتهم شعراء ذلك العصر بالركاكة في لغتهم؛ وذلك يعودُ لجهلهم الكبير بأسرار اللغة، وجمالها، وَمَقَاتِيحَهَا" (علوان، ع، 1975م، 54).

فالرصافي إذن ينطلق من مبدأ الصدق الفني، والواقعية؛ وذلك نابعٌ من اعتقاده الجازم بأنّ الشعر ليس وسيلةً للتعبير فقط، وإنما نقلٌ صادقٌ وحقيقي عن تجربةٍ إنسانية، ومواقف الشاعر تجاه مجتمعه وبيئته مواقف صلبة هَدَفَ من وراءها إلى إصلاح المجتمع وتصوير الواقع كما هو . وكيف لا يكون شعره واقعياً وهو يحدثنا عن الأسباب التي حملته على نظم ثلاث من قصائده؛ وهي: "اليتيم في العيد"، و"الفقر والسقام"، و"السجن في بغداد"، وهو القائلُ كانت مشاهد البؤس من أشدّ الدواعي عندي إلى نظم الشعر.

فالرصافي خير من صور آلام الفقراء وما يجدون من شظف العيش، وقسوة الحياة، وديوانه يزرع بقصائد كثيرة رائعة في وصف هذه الآلام وصفاً دقيقاً، بل إن شاعريته بدأت ظواهرها، وانبعثت أسرارها، وفاضت بحارها تحديداً في هذا اللون من الشعر (طبانة، ب، 1947م، 136-137).

الموضوعات الكونية من مظاهر التجديد، غير أنّ النقاد لهم مأخذ عليها؛ يأتي على رأسها إسراف الشاعر في شعر الكونيات إلى الحد الذي احتل مساحات لا بأس بها من ديوانه المنشور، غير أنّ هذا الإسراف ليس بممّوج، إذ الدين في جوهره يدعو إلى التأمل، وإطالة التفكير، والنظر في الكون، وظواهر الوجود، وعدم الاكتفاء بأداء الطُقُوس؛ وهذا ندرك قيمة الأجواء الدينية، ومدى أهميتها بالنسبة للفنان الأصيل (علوان، ع، 1975م، 33)، إذ يقول:

قرأتُ وما غيرَ الطبيعة مِنْ سِفْرِ صَحَائِفَ تحوي كُلَّ فَنٍّ مِنَ الشِّعْرِ (الرصافي، م، 1953م، 6) [الطويل]
الثورة على التقاليد الفنية من مظاهر التجديد التي نادى بها الرصافي؛ فقد كان من الطبيعي أن يأخذ الرصافي على نفسه الخلاص من أغلال التقليد الفني، ورِيقَةِ المحاكاة التامّة، ليكون صورا جديدة تصور ما اضطّرّم في وجدان الشاعر من الغرام والهِيام بالحرية، فالرصافي لا يرى ضرورة الابتداء في الشعر بذكر الأطلال والدمن والآثار، والوقوف والبكاء عليها، بل ينفذ إلى غرضه في صورة مباشرة وقدره فائقة، إذ يقول:

لَا تَبْكُ أَزْجَعُهُمْ وَلَا الْأَطْلَالَ وَأَرْبَأُ بِحَيْثُكَ أَنْ يَكُونَ حَيَالَا

وَأَتْرُكُ سُؤَالَكَ لِلرُّسُومِ؛ فَإِنَّهَا مِمَّا يَزِيدُكَ بِالسُّؤَالِ ضَلَالَا (الرصافي، م، 1953م، 218) [الكامل]
ولذلك اتّسم شعره بالوحدة العضوية، فوحدة الغرض من الملامح الأساسية التي يلحظها الباحث في شعر الرصافي، إذ يقول:-

إِذَا انْتَهَضْتَ أَيْبَاتَهُ فِي قَصَائِدِي تَرَى كُلَّ بَيْتٍ مُسَكَّ بِقَرِينِهِ (الرصافي، م، 1953م، 189) [الطويل]
ومن مظاهر التجديد في شعر الرصافي " المعاني البكر"، وهي المعاني الجديدة والمبتكرة التي أرسلها في قصائد السياسيات والاجتماعيات تحديداً، التي لم يسبقه إليها أحدٌ من معاصريه، وقد برع فيها براعة منقطعة النظير؛ فالعصر هو الذي وجهه إلى بناء شعره لغويا، وتعبيرا عن هذه الحقيقية، يقول:-

عَلَى أَنَّ لِي طَبْعًا لَبِيقًا بَوْشِيهِ نَزُوعًا إِلَى أَبْكَارِهِ دُونَ عَوْنِهِ (الرصافي، م، 1953م، 198) [الطويل]

وفي ذلك يقول أيضاً:

لَا يَحْسُنُ الشِّعْرُ إِلَّا وَهُوَ مُبْتَكَّرٌ وَأَيُّ حُسْنٍ لِشِعْرِ غَيْرِ مُبْتَكَّرٍ؟ (الرصافي، م، 1953م، 64) [البسيط]

يتبنى الرصافي موقفا نقديا واضحا ضد التقليد في الشعر فالشعر دون تجديد أو ابتكار لا يكون في نظره حسناً، ويرى كذلك أنّ الإبداع والتجديد في الشعر شرطاً أساسياً في قيمته الفنية، وهذا قريب من رأي الحداثيين الذي يشددون على ضرورة "الفردة" أو "الذاتية" في العمل الأدبي .

وأما جودة الشعر عنده فهي أن تكون ألفاظ ذلك الشعر مستوحاة من لغة عصره لا العصور التي خلّت، ولهذا جاءت ألفاظه من النوع السلس العذب الخالي من مظنة التصنيع، فهو ببساطة يتحدث عن آلام الناس وهمومهم؛ ووفقاً لذلك وجب عليه أن يخاطبهم بلغة يفهمونها ويدركونها، إذ يقول:

وَأَرْسَلْتُهُ نَظْمًا يَرُوقُ أَنْسَجَامُهُ فَيَحْسِبُهُ الْمُصْغِي لِإِنْشَادِهِ نَثْرًا! (الرصافي، م، 1953م، 64) [الطويل]

السهولة والبساطة في الألفاظ والتراكيب مظهر من مظاهر التجديد في الشعر العربي الحديث، والتي حمل لوائها طائفة من رواد مدرسة الإحياء أو البعث والرصافي منهم، ولعل هذا ما جعل شاعرنا يتبنى قضية المواجهة بين العامية والفصحى في بعض شعره، وقد وضح في غير ما مناسبة الداعي إلى ذلك وهي الحاجة إلى لغة تتماشى والعصر الذي نعيشه، تتطور وتتغير وفق المعطيات التي تفرضها الحياة والمجتمع؛ إذ يقول :

وَأَجُودُ الشِّعْرِ مَا يَكْسُوهُ قَائِلُهُ بِوُثْيِ ذَا الْعَصْرِ الْخَالِي مِنَ الْعُصْرِ [البسيط]

وفي القصيدة التي رثى فيها الشيخ الخالصي يتضح بجلاء منهجه الشعرية؛ فهو التماس المعاني الواضحة التي لا لبس فيها من طريق الألفاظ السلسلة السهلة، وكأنه يقوم على حبك شعره بنفسه، ولا شك أنّ استخدام البحر الطويل في هذا المقام الشعري له أثر في بناء الحبك أيضاً، وتعبيراً عن هذا الهدف المعلن يقول:

لَسْتُ بِالشَّاعِرِ الَّذِي يُرْسِلُ اللَّفْظَ جُرَافًا؛ لِكَيْ يُصِيبَ جِنَاسَهُ

أَنَا لَا أَبْتَغِي مِنَ اللَّفْظِ، إِلَّا مَا جَرَى فِي سُهُولَةٍ وَسَلَاسَةٍ

إِنَّمَا غَايَتِي مِنَ الشِّعْرِ مَعْنًى وَاضِحٌ يَأْمَنُ اللَّيْبُ التَّبَاسَهُ (الرصافي، م، 1953م، 312) [الخفيف]

ليس الرصافي بالشاعر الذي يُقَدِّمُ اللفظ على حساب المعنى، وفي ذلك يقول الأديب العراقي هلال تاجي: "إنّ الرصافي من شعراء المعاني لا الألفاظ" (الخطاط، ق، 1971م، 239)، فهو شاعر مطبوع يستدعي من الألفاظ ما انقادت له المعاني .

أما الصور التي يقوم بعرضها في شعره فمستوحاة هي الأخرى من البيئة العربية البدوية، إلى جانب سلاسة الألفاظ وسهولة جريانها، والتي لا تعني بالضرورة احجام الشاعر بالكليّة عن الغريب أو تنكب التقليد، وفي هذا يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: "وهو حين يُعَرِّبُ في لفظه، وَيَعْرِضُ عليك صوراً قديمةً فيها كثيرٌ من الطبيعة العربية البدويّة، وفيها المنهج التقليدي لنظم القصيدة العربية، إنما يقابل هذا بسهولة في القصيدة نفسها حتى كأنك تقرأ مقالةً لعنوان في صحيفة يومية من صحف هذا الزمان" (السامرائي، إ، 1959م، 48).

3- النتائج

1. القيمة الفنية في شعر معروف الرصافي ليست غايةً جماليةً بحتة، بل هي وسيلةٌ تعبيريةٌ موضوعةٌ في خدمة قضايا الإنسان العربي، وهو ما تجلّى في صدق العاطفة، وسلاسة اللغة.
2. أظهرَ الرصافي انحيازًا واضحًا للطبقات الفقيرة والمهمشة؛ من خلال قصائده التي تعد نماذج للشعر الإنساني والاجتماعي كـ "الأرملة المرضعة"، و "اليتيم في العيد"، وغيرهما.
3. يعد الرصافي من رواد التجديد في المضمون لا في الشكل؛ إذ ثبتَ على البحور التقليدية للشعر العربي، لكنه جدد في الموضوعات، والأسلوب، وطريقة المعالجة؛ مما يجعل شعره امتدادًا صادقًا لمدرسة الإحياء.
4. عالج الرصافي في شعره قضايا سياسية مهمة كـ: رفض الاستعمار البريطاني لبلاده، وفضح فساد الحكومات المحلية؛ ممّا جعلَ شعره وثيقةً نضاليّةً بامتياز.

4- خاتمة عامة

وبالنتيجة؛ يمكن القول إنّ الرصافي لم يكن شاعرا تقليديا يردد ما سبقَ إليه غيره، بل كانَ مجددا، ذا جِسِّ رِسَالِيٍّ، وَصَوْتِ إنْسَانِيٍّ نَابِضٍ، وموقفٍ فكري واضح، فقد قدم تجربة شعرية صادقة تجمع بين الفن والرسالة، وتنتهي إلى هموم الأمة لا إلى عَزَلَةِ النُخْبَةِ، فكانَ بحق أحدَ أبرزَ أعلام الشعر العربي في العصر الحديث، وشاعرا استثنائياً عبّرَ عن عصره ووجدان أمته بعمق وجراةٍ انقطع نظيرها.

**

6- المصادر والمراجع

1. السامرائي، إبراهيم. (1959م). *الرصافي بين المحافظة والتجديد- الجانب اللغوي*. بغداد: مجلة الثقافة الجديدة.
2. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. (د.ت). *مجمع الأمثال*. بيروت: دار المعرفة.
3. طبانة، أحمد بدوي. (1947م). *معروف الرصافي- دراسة أدبية لشاعر العراق وببئته السياسية والاجتماعية*. مصر: مطبعة السعادة.
4. ابن رشيق، الحسن الفيرواني. (1981م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. بيروت: دار الجيل.
5. رجي، توفيق. (1388هـ). *معروف الرصافي- وقفات في حياته وأدبه*. أربيل: جامعة آزاد الإسلامية.
6. بطي، رافييل. (2018م). *الأدب العصري في العراق العصري*. لندن: مؤسسة هنداوي.
7. مسعود، سعاد محمد أحمد. (د.ت). *الأرملة المرضعة في شعر معروف الرصافي*. مصر: جامعة سوهاج.
8. علوان، علي. (1975م). *تطور الشعر العربي الحديث في العراق*. العراق: وزارة الإعلام العراقية.

الرصافي شاعر الواقع والضمير؛ دراسةً فنيةً في شعره بين الإنسان والمجتمع

9. الخطاط، قاسم. (1971م). معروف الرصافي شاعر العربية الكبير. القاهرة: الهيئة المصرية العامة.
10. الجبوي، كامل سليمان. (2002م). معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002. بيروت: دار الكتب العلمية.
11. عبدالله، محمد حسن. (1981م). الصورة والبناء الشعري. القاهرة: دار المعارف.
12. علي، مصطفى. (1947م). الرصافي (صلي به ، وصيته ، مؤلفاته) . مصر: دار الكتاب العربي.
13. علي، مصطفى. (1953-1954). محاضرات عن معروف الرصافي حياته وشعره. القاهرة: معهد الدراسات العربية والإقليمية جامعة الدول العربية.
14. الرصافي، معروف. (1953م). ديوان الرصافي. مصر: دار الفكر العربي.
15. صفوة، نجدة فتحي. (1988م). معروف الرصافي. لندن: دار رياض الريس للكتب والنشر.